Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Ansiklopedisi

من ذخائر المكتبة الإسلامية

في رجال الحديث

كتاب الكفاية

في علم الرواية

تصنيف

الإمام الحافظ المحدث أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت
المعروف بالخطيب البغدادي المتوفى سنة
ثلاث وستين وأربعمائة رحمه الله تعالى

HATEK

تقديم المحدث
محمد الحافظ التيجاني

مراجعة الأستاذين
عبد الحليم محمد عبد الحليم
عبد الرحمن حسن محمود

Kahire 1972 bk. mineeid IV, 78
(Dgr. Muhammed el-Hâfiz et-Tîcânî)

ملتزم الطبع والنشر
دار الكتب الحديثة بالقاهرة
ومكتبة المثنى ببغداد

Misir

الطبعة الثانية

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

مطبعة
دار التراث العربي
١٣ حارة سعد الله ـ الدرب الأحمر
ت : ٩٣٦١٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة على سيد الخلق رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم

محمد رسول رب العالمين رحمة للعالمين

لقد أوحى الله عز وجل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم :

« يا أيها المدثر قم فأنذر » فأطاع صلى الله عليه وسلم ربه ، وقام على الصفا ، ونادى قومه ، وخطب فيهم ، وسألهم : أو لو أخبرتكم أن قوماً سيغزونكم خلف هذا الجبل ، أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذباً . ونادى فيهم المعصوم الميمون : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم ، ووالله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم .

من هنا ، في هذا المكان ، وهذا الزمان ، انطلقت دعوة الحق ، ودعوة النور التي محا الله بها ظلمات الضلالة ، وظلم البشر للبشر .

لقد كانت الإنسانية مكبلة بقيود التقليد والتقاليد . قال تعالى : «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون »[1] .

وقال تعالى : « « وتنذر به قوماً لدا »[2] .

وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم أمره ربه أن يبلغ أمر الله للعالمين . من آمن به ومن لم يؤمن .

---

(١) سورة البقرة : ١٧٠

(٢) سورة مريم : ٩٧

وقد أخبرنا الله عزوجل أن الأمم غيرت وبدلت . قال تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون »[1] .

وقد شهد التاريخ بتحريف الرسالات .

فأين الوحى الذى أنزل على المسيح عليه السلام ، وبلغه قومه ، وخرج من بين شفتيه ؟ وداود وموسى والأنبياء ، وما يوجد فى كتبهم الآن يُعد من كتب السيرة والتاريخ . لقد ضاعت أصول هذه الكتب عبر التاريخ .

وخذ مثلا الأناجيل ، وهى كتب أجمع أهل العلم - حتى المسيحيون منهم - على أن قوماً كتبوها ، فلان وفلان ، فليست من الوحى الذى أوحى الله إلى المسيح عليه السلام وبلغه قومه ، وخرج من بين شفتيه - وهذا هو حقيقة الإنجيل الذى أمرنا الله ورسوله بالإيمان به - ولا هى من تأليفه عليه السلام حتى تعتبر حديثاً ، غير خطبة الجبل وبعض كلامه فى خلال سرد تاريخ حياته وسياقه .

وهلم إلى كتاب الله عزوجل ، فقد تكفل الله بحفظه وقال عنه : « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » فكأنما نسمعه من الذات المقدسة كفاحاً . وقال فيه أيضاً : « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم » .

وقال أيضاً : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

وانظر معنى أقوم : فليس مستقيما فحسب ؛ بل هو أعدل وأفضل .

ورسالة الرسل جميعاً جزء من رسالته صلى الله عليه وسلم وأولى أن يندرج

(١) سورة البقرة : ٧٩

فى رسالته ، ما كان دون دعوة الرسل ، من المبادىء الصالحة التى يدعو إليها الحكماء والمصلحون .

وتكفل الله تعالى بحفظ كتابه ، يستلزم حفظ بيان الرسول صلى الله عليه وسلم له ، فليس المراد تبليغ ألفاظ القرآن مجردة عن مقاصدها ، وقد قال الله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزل إليهم » .

فإذا كان المقصود تبليغ القرآن وبيانه ، فقد حفظ الله عز وجل رسالته إلى الناس ، وحفظ بيان هذه الرسالة التى قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رسله إلى الآفاق ، لدعوة الأمم إلى ما كلفه به سبحانه وتعالى ، فإنه أرسل إلى الأمم قاطبة إلى قيام الساعة . قال تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » .

أمر الله بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله »[1] ، وقال : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول »[2] .

« ومن يطع الرسول فقد أطاع الله »[3] .

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليما »[4] .

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم »[5] .

(١) سورة النساء : ٦٤
(٢) سورة النساء : ٥٩
(٣) سورة النساء : ٨٠
(٤) سورة النساء : ٦٥
(٥) سورة الأحزاب : ٣٦

« قل إن كنتم تحبون الله ، فاتبعونى يحببكم الله »[1] .

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة »[2] .

ومعنى قول الله تعالى فى هذه الآية الشريفة « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » أى ائتسوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، واقتدوا به فهو المثل الأعلى للكمال الإنسانى .

فلابد من معرفة بدايته صلى الله عليه وسلم ، وسيرته ومكارمه ، وما أنعم الله به عليه فى حياته ، من حيث هو فرد ونبى ورب أسرة وأب وأخ ، وداع إلى الله ، وصراط مستقيم ، ونور وبرهان من ربه ، وقائد وحاكم فى حربه وسلمه ، وعباداته ومعاملاته ، من حيث هو قدوة ونبراس ومشرع للعالمين ، فى كل زمان ومكان ، وخاتم النبيين .

ولم يحدد الحق تبارك وتعالى طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحد ، لأنه رسول الله ، قد ائتمنه على رسالته . ولم يقل ليطاع فى شىء دون شىء فإنه لا يأمر بما لا يرضى الله عز وجل ، فذلك مستحيل .

ومعنى : « إلا ليطاع بإذن الله » أى أطيعوه ، فهو أمر من الله بطاعته .

والطاعة هنا عامة : ولا يعقل أن يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أمراً فنطالبه بنص من القرآن على هذا الأمر ، لأننا آمنا بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه الصادق المصدوق ، وأنه لا يأمر إلا بما فيه رضاء الله تبارك وتعالى . والرسول صلى الله عليه وسلم أعلم الخلق بكتاب الله . وقد أنزل عليه وأمر ببيانه للناس .

والمؤمن لا يجوز له أن يفعل فعلا ، أو يقول قولا إلا إذا علم حكم الله

(١) سورة آل عمران : ٣١ .
(٢) سورة الأحزاب : ٢١ .

فيه ، فإن كان واجباً ، أتى به على سبيل الوجوب ، وإن كان مندوباً أتى منه بما استطاع . وإن كان حراماً تركه . أو مكروهاً ابتعد عنه ما استطاع ما إلا إن كان هناك مصلحة تنتفى معها الكراهة . وإن كان مباحاً فهو مخير فى الفعل والترك على الأصول والقواعد المبينة فى شرع الله .

وإذا كان الحكم منصوصاً عليه فى كتاب الله عز وجل صريحاً ، فلا يحل لمؤمن أن يحيد عنه ، فإن لم يكن منصوصاً عليه فى كتاب الله ، فقد دلنا منزل الكتاب سبحانه على ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله أو فعله أو إقراره ، لأنه صلى الله عليه وسلم هو الأسوة الحسنة ، فإن نجد نصاً عليه فى كتاب الله ، ولا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد دلنا منزل الكتاب سبحانه فى كتابه ، أن نرجع إلى أولى الأمر ، وهم الذين علموا كتاب الله ، وما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد بينهم الله عز وجل فى كتابه فقال عز شأنه : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ، وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا »[1] .

فأولى الأمر الذين أمر الله بطاعتهم ، وجعل طاعتهم من طاعة الله ورسوله ، هم ورثة الرسل عليهم الصلاة والسلام .

وعن على بن أبى طلحة عن ابن عباس « أولى الأمر منكم » يعنى : أهل الفقه والدين .

(١) سورة النساء : ٨٢

ومن أولى الأمر كذلك ، أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أمّرهم على السرايا فى البلاد ، وكذلك الأمراء الذين يأمرون بما أمر الله به ورسوله ، وما استنبطه أهل الفقه والدين علماء الأمة ورثة الأنبياء ، مما لم يرد فيه نص فى كتاب الله عز وجل أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه فرع عن أصل فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقال تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »[1] .

فأوجب الله عز وجل على المؤمنين ، أن يحمل المتأهل منهم ، أصول الدين وفروعه عن الرسول المعصوم صلى الله عليه وسلم ، ويبلغوا قومهم — إذا رجعوا إليهم — ما حفظوه عنه صلى الله عليه وسلم ، وهم الطبقة الأولى الذين أخذوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة ، والذين أخذوا عنهم ولم يجتمعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، هم الطبقة الثانية بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسماهم أهل العلم التابعين ، لأنهم يندرجون فيمن تبع السابقين الأولين بإحسان ، ما عملوا بعملهم .

من لا يأخذ إلا بالقرآن

يجب عليه أن يأتى من القرآن بنص يأمرنا أن
لا نأخذ بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومن يزعم أنه لا يأخذ بالسنة ، ويكتفى بالقرآن ، بأى مبرر استجاز ذلك

(١) سورة التوبة : ١٢٣

لنفسه ؟ لا يستطيع أن يأتى بدليل من القرآن على ترك ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يجب عليه أن يأتى بنص صريح من القرآن ، أن لا نتبع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا فيما جاء صريحاً فى القرآن .

وإن من يريد فهم القرآن لا يستطيع أن يفهمه كما ينبغى أن يفهم ، إلا إذا أحاط بأسباب النزول ، وفى الظروف والمناسبات التى نزل فيها ، فإن القرآن الكريم نزل بالتوالى مدة ثلاث وعشرين سنة ، فى أحوال خاصة ووقائع خاصة .

فكيف نستطيع أن نعرف معنى قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه »[1] ، إن لم نعرف سبب نزولها .

وكيف نعرف معنى قوله تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ... »[2] .

وكيف نعرف معنى قوله تعالى : « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى »[3] .

وكيف نعرف قصر الصلاة ، وكيف نعرف معنى قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم »[4]

وكيف نعرف معنى قوله تعالى : « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه ، أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ... الخ »[5] .

(١) سورة القيامة : ١٧
(٢) سورة قد سمع : ١
(٣) سورة النجم : ١٤
(٤) سورة الاحزاب : ٣٦
(٥) سورة الأحزاب : ٣٧